المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ١٩٨١/١٠/١٩

نضج الجماهير .. ونفـاق الشـامتين

كلما نضج الانسـان اتسـمت انفعـالاته بـالاعتدال والانفعـالات تتـراوح فى طبيعتهـا بين طـرفى اللذة والألم ووسطهما نقطة سكون . ومن البدائية الى النضج نشـاهد عند طرف الألم تطور الانفعال من الكآبة ومـاشابهها مـن يأس أو تشاؤم او كره للذات الى الحزن ومايرتبط به مـن وقار ورباطة جأش واحترام للمـوضوع المفقـود . بينمـا نشاهد عند طرف اللذة التطور من الهوس ومايصاحبه مـن غرور وسـطحية وتقلب الى المرح ومـايصاحبه مـن ثقـة بالنفس وحيوية واستمرارية .

وبين اللذة والالم نجد السكون البدائي يأخذ صورة التبلد والغاء المشاعر بينما نظيره المتطور يأخذ شكل الحكمة والسكينة وراحة البال . لقد فقد القوم زعيما لهم بعد ان ارتضوه فى هذا الدور احد عشر عاما ، كما ارتضوه قبل ذلك مشاركا فى الحكم الثائر الذى جاء فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل قدموا له الحماية كثائر على الحكم من قبل ذلك ، وفقدوه فى ظرف اليم وهو احتفال بعيد نصر كان هو قائده وسط ظلمات هزيمة سابقة عليه . ووقت كان يوشك على جنى ثماره باسترداد بالسلم ماتبقى من أرض مصرية محتلة . وبرصاص من من اجلهم بادر بالسلم شجاعا غير مكبل بابتزاز الشعارات الجوفاء كيلا تسيل دماؤهم هباء .

ومع هذا لانشاهد تطرفا فى الانفعال بين الناس . فى القاعدة الحياة تسير بايقاعها المعتاد . وعند القمة تنتقل مقاليد الأمور ببساطة وسلاسة دون ادنى اشارة لارتباك او خلخلة . كل هذا قد يجعل البعض يتساءل عن مكان الحزن ؟ .

فالحزن مازال يرتبط فى اذهاننا بمظاهره المتطرفة وبالتالى فأن غياب التطرف فى الانفعال قد يتبادر الى الذهن شك فى وجوده واستبداله بالتبلد واللامبالاة . وهنا لابد من التمييز بين الحزن كظاهرة صحية والكآبة كشكل مرضى للحزن ، وكذلك بين التبلد والحكمة .

كما اننا من جانب اخر نرى اطرافا عديدة أخرى فى الوطن العربى تتطرف فى الاتجاه الآخر وهو المرح الذى يقرب من الهوس والهرج . وهنا أيضا لابد من التفريق بين المرح المقترب من الحكمة والمرح المتطرف الذى يأخذ شكل الهوس والهرج .

فاذا قبلنا بأن الشعب المصرى قد انضجه التاريخ الحديث مضيفا الى رصيده من النضج الناتج من التاريخ القديم فلعلنا نميل الى تفسير الظاهرة الموجودة فى اتجاه الحكمة بدل التبلد والحزن بدل الكآبة .

فقد فقد الشعب فى مصر زعامات وقيادات عديدة فى الفترة الاخيرة لعل اهمها كان موت الرئيس الراحل عبد الناصر علاوة على غيره من القيادات مثل الفريق عبد المنعم رياض والفريق احمد بدوى ورفاقه . وتعلم الشعب من خبراته هذه انه باق مهما تبدلت القيادات . وان قيادته فى جوهرها افراز طبيعى له وتعبير عنه . بحيث تكون الاتجاهات التى يمثلها القائد انما هى قيادات معبرة عن اتجاهات الشعب . فالشعب ليس بمجموع تابع مفعول به بلا ارادة ولا هو ضحية سلبية لقيادة رشيدة كانت ام منحرفة .

ان العلاقة التى تنشأ بين التابع السلبى والقائد المتسلط لهى فى طبيعتها

علاقة اعتمادية بدائية وتتميز بالتطرف . التابع المعتمد يرتبط بقائده بمشاعر متناقضة الثنائية . فهو يحبه بعنف ويكرهه بعنف فى ذات الوقت فاذا مافقده أو هدد بفقدانه تطرف فى التعلق به والتمسك به والحزن عليه

اما فى العلاقة المتكافئة الندية التى تنشأ بين طرفين كلاهما اقترب من النضج ، فأن الأرتباط يكون معتدلا ، وتتسم الأنفعالات له بالأعتدال . فاذا كان ثمة تناقض وجدانى بين الحب والكره فهو بين درجتين محدودتين منهما وليس بين حب شديد وكره شديد . فاذا ماذهب موضوع الحب ، اى القائد ، أخذ الحزن عليه شكل الأعتدال ، وابتعد عن طابع الكآبة والتشاؤم واليأس .

لقد نضج المغفور له الرئيس الراحل محمد أنور السادات بفعل تجربة سنوات الكفاح الطويل الذى ولد فيه منذ صباه ابان نشأته القروية . كان ارتباطه بالشعب بادئا من جذوره الريفية التى هى منبع كل ماهو أساس للأمة من مأكل وملبس ومسكن الى القيم والوجدان . كافح ليرتفع بهذا الأصل الريفى ليندمج مع المدينة والمدنية فيأخذ منها مفهوم الكفاح المسلح والكفاح السياسى بما فى ذلك الكفاح السرى والأغتيال . واشترك فى الثورة الشعبية التى التحمت بها ثورة الجيش فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ . انضجته الهزيمة حينما ذاق التشرد والحبس الانفرادى حيث عاش لخبرة الصوفية التى مكنته من التجاوز لذاته بما جعله قادرا على العطاء لقومه . وانضجه النصر الذى تحقق بنجاح ثورة يوليو ثم الهزيمة التى كانت النتيجة الطبيعية للأفراط فى الفرح بنصر هذه الثورة . فكان هو القادر على تصحيح مسارها فى ١٥ مايو ١٩٧١ ثم اعادة التصحيح فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ .

ولكن نضوج الرئيس السادات لم يكن نضوج فرد منعزل عن مجتمعه بل كان تعبيرا عن النضوج الطبيعى الذى كان يعيشه الشعب فى مصر ، والذى كان هو القائد المعبر طبيعيا عنه . واذا كان هناك ثمة فجوة بين القائد والجماعة فهى التى نشأت من سرعة نضوجه وقدرته على تجاوز الذات . وهى سرعة لم تخل من المضاعفات والتى كان اخطرها اعادة ظهور فلول الذات فى مقاومة دفعة التجاوز التى تساوى نوبانها ، وبين سرعة تجاوزه وماتبقى من فلول الذات احتد الصراع بين التقدم السريع ومقاومة التقدم أو بين الحركة والجمود وبين الأعتدال والتطرف وكأن هذا التطرف فى صحوته الأخيرة ماقبل موته استعمل ليقتل غريمه . فالتطرف الرجعى اكتشف أنه لم يعد له مكانه فى شعب ينضج . وأخذ يبحث عمن يفتنيه

ويوجه عدوانه نحوه وكأن الشعب مجرد تابع بلا ارادة ، وضحية لقيادة فرضت عليه وكأن التخلص من ذات هذه القيادة هو الخلاص لذلك الشعب السلبى . وهنا مكمن الخطأ فالاتجاه الذى قاده الرئيس السادات لم يكن مجرد وليد ذات منفردة ولكنه كان انعكاسا لذلك المتصل الواسع الذى كون هذه الذات والذى يحوى جوهر اتجاه الشعب فى مصر . انه يحوى الريف والمدينة ، والتراث الحديث ، والشرق والغرب ، والحرب والسلم أو الكفاح المسلح والكفاح السلمى . والقضاء على الذات الجسدية للقيادة لايعنى ان الاتجاه قد مات . بل انها الاختبار الحقيقى لمدى ارتباط اتجاه القائد هذا بجوهر اتجاه الشعب فى مصر ، ومدى قدرة الشعب فى مصر على ان يبقى على منابع منه وعبر عنه من خلال قيادته . ولعل افضل تعبير للشعب فى مصر عن ذلك النضج هو فى كيفية انفعاله بالحزن الهادىء ، لا الصراخ ولا الولولة ولا الكابة المتشائمة . فبالحزن نستطيع ان نودع قائدا لنولد ، اتجاها ونستغنى عن قائد لنكمل بسواعدنا ماساعدنا فيه هو على اكتشافه . اما الشامتون المفرطون فى المرح . فليس لهم الا شهادة الزمان لتبين لهم مدى خواء انفعالهم ، بل مدى نفاقهم فى الفصل المصطنع بين الشعب وقائده . فهم لايجراون على معاداة الشعب مباشرة او التعبير عن حقد تجاهه فلجأوا الى تلك الحيلة المصطنعة والسطحية ان يفصلوا بين الشعب والقائد فيصبوا عدوانهم الذى يخص الشعب نحو القائد ليناقلوا الشعب حتى يتحد معهم من أجل هدم خصمهم الحقيقى وهى وحدة مصر وقوتها .

ان مصر وحدة متكاملة ويشهد على ذلك رد فعل الشعب لكافة الخطوات الجريئة التى اتخذها الرئيس السادات بدءا من ثورة التصحيح الى حرب اكتوبر الى مبادرة السلام الى تصحيح التصحيح بغية الابقاء على وحدة الشعب وتماسكه . والذى يحترم مصر عليه ان يحترمها بكافة جوانبها ـ شعبا وحكومة ، ثورة ونظاما وهذه الشماتة المرحة فى مناسبة حزينة لاتجد صدى لها فى قلوب الناس فى مصر لأن قلوبهم قد نضجت وابت التطرف فى الانفعال مثلما ابت التطرف فى كل اشكال حياتها . ان مصر حزينة ولكنها متفائلة . مات زعيمها ولكن بقيت حركتها ، وصارت جاهزة لميلاد زعيم تلو زعيم .